ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Conclusion of the Arabic poem by Ibn Haniyah al-Andalusi

Anmar Kamel Khudair

Ministry of Education / Karbala Education Directorate

* *Corresponding author: E-mail* : dr.anmarkamel@gmail.com
07718606517

***Keywords*:**
Epilogue
epilogue patterns
Ibn Hani'a
artistic means
structure of the poem.

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	23 Aug 2024
Received in revised form	25 Sept 2024
Accepted	17 Sept 2024
Final Proofreading	1 Nov 2024
Available online	2 Nov 2024

E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

The research was interested in standing on the conclusion of the poem, and its manifestations in the Andalusian poetry of Ibn Hana'a; due to the strong presence of the pillars of the vertical poem, and the conclusion is one of these pillars that draw attention and have an effective impact on the recipient, as it suggests many of the contents for which the poem is formulated, and is the final outcome that culminates in it. In addition to what it includes different patterns with different connotations and connotations, which led to the disclosure of the content of the poem or its final conclusion or the crystallization of the poet's experience in standing at the inevitable ends of an issue to be a closed conclusion, or an open conclusion due to the presence of data indicating continuity, which is what our research tried to address and stand on.

© 2024 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.31.11.2024.01

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for

خاتمة القصيدة العربية عند ابن هانئ الاندلسي

انمار كامل خضير/ وزارة التربية / مديرية تربية كربلاء المقدسة

الخلاصة:

اهتمَّ البحثُ بالوقوفِ عندّ خاتمة القصيدة، وتجلياتها في شعر ابن هانئ الاندلسي؛ نظراً لما يمتازُ به شعرُ ابن هانئ من حضور قوي لأركان القصيدة العمودية، والخاتمة من ضمن هذه الأركان التي تلفت الانتباه ولها الأثر الفعال في المتلقي، اذ توحي بالكثير من المضامين التي تصاغ لأجلها القصيدة ، وتعدّ الحصيلة النهائية التي تبلغ الذروة فيها .

فضلاً عمّا تشتملُ عليه من أنماط مختلفة ذات إيحاءاتٍ ودلالاتٍ ، أدّت إلى الكشف عن مضمون القصيدة أو خلاصتها النهائية أو بلورة تجربة الشاعر في الوقوف عند النهايات الحتمية لقضية ما

فتكون خاتمة مغلقة منتهية ، أو خاتمة مفتوحة نظراً لوجود المعطايات التي تدل على الاستمرار ، وهو ما حاولَ بحثُنا التطرُق إليه ، والوقوف عنده .

الكلمات المفتاحية: الخاتمة ، أنماط الخاتمة ، ابن هانئ ، الوسائل الفنية ، هيكل بناء القصيدة.

المقدّمة:

الحمدُ لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه المنتجبين ، وبعد

إنّ ابن هانئ الأندلسي من الشعراء الذين أثاروا ضجة أدبية كبيرة في سماء الأدب العربي؛ لما لذلك الشاعر من موقف صلب ، قوي تجاه الإفصاح عن معتقداته التي مثل المذهب الإسماعيلي يتورع في إظهارها ، والتستر فيها ، وكان مبالغاً في أغلبها ، وقد ارتأيت أن أتناول دراسة الخاتمة في ديوانه ، كونها تمثل أصدق أبيات القصيدة لأنها تعبّر عن اجمال التجربة التي مرّ ذكرها في ثنايا القصيدة لنتعرف أكثر على شخصية ذلك الشاعر وأثر المذهب فيها ، فضلاً عن إنّ خاتمة القصيدة بصورة عامة لم تحظَ بعناية الباحثين ، والدراسة بشكل جاد سوى محاولاتٍ فردية هنا وهناك ، ولمحاتٍ سريعة في كتب النقد الأدبي من تمعن وتفحص .

وقد اقتضت خطة البحث أن تكون على أربعة فقرات ، تناولت في الفقرة الأولى نبذة مختصرة عن حياة الشاعر ابن هانئ الأندلسي ، أما الفقرة الثانية فتناولت مصطلح الخاتمة وآراء النقّاد فيها ، أما الفقرة الثالثة فتكفّلت بدراسة أنماط الخاتمة عند ابن هانئ الأندلسي ، بحسب كثرة ورودها في ديوانه ، أما الفقرة الرابعة فقد درست فيها الدراسة الفنّية لخاتمة القصيدة في الديوان ، وكانت على ثلاثة مستويات ، وهي المستوى اللفظي ، والمستوى التركيبي ، ومستوى الصورة الفنّية، وتبعتها خاتمة البحث بيّنتُ فيها أبرز النتائج التي توصل إليها البحث ، أما أهم المصادر التي استعنت بها لإتمام هذا البحث هي ديوان ابن هانئ الأندلسي ، وخاتمة القصيدة الأندلسية في عصر الطوائف ، والخواتم الشعرية النظرية والتطبيق قديماً وحديثاً للدكتورة أناهيد الركابي، فضلاً عن مصادر أدبية قديمة ، ومراجع حديثة .

أولاً : ابن هانئ ، مولده ، نشأته (نبذة من حياته)

هو ((محمد بن هانئ بن علي بن محمد بن سعدون الأزدي الالبيري الغرناطي ، يُكنى أبا القاسم ، ويعرف بالأندلسي))[١] قيل إنّه من ذرية بن حاتم بن المهلب بن أبي صفرة[٢] ، وأشاد به ابن خلكان (٦٠٧هـ) ، فقال عنه ((إنه كان شاعراً أديباً))[٣] ، نشأ ابن هانئ في اشبيلية ، وقد نال حظّاً وفيراً من العلم والأدب فيها ، فحفظ أشعار العرب وأخبارهم[٤] ، وكان ((مهتمّاً بالفلسفة يسلك في أقواله وأشعاره

مسلك المعري وما زال يغلو في ذلك حتى تعدى الحق وخرج في غلوّه الى ما وجه له من التأويل فأزعجه أهل الأندلس واضطروه الى الخروج من وطنه))[٥] ، فتنقل بين مدن الأندلس ، حتى اعتنق المذهب الإسماعيلي[٦] الذي نهل أصوله من والده الذي كان أحد دعاة المذهب الإسماعيلي السري في الأندلس[٧] ، ويستبعد الدكتور عمر فروخ الفكرة التي تقول بأن ابن هانئ قد اعتنق المذهب الفاطمي في الأندلس ، ثم اضطر الى مغادرة الأندلس من أجل ذلك [٨] كونه قد نهل أصول ذلك المذهب من والده منذ كان صغيراً ، وهذا ما جعله يجد ضالته عند المعز لدين الله ، الذي ما لبث أن طلبه وقرّبه ، وأكرمه فمدحه ابن هانئ ، وغالى في مدحه، ومدح قائده جوهر وهذا ما يشهد به ديوانه ، إذ نجد أغلب قصائده في مدح المعز لدين الله[٩] وقائده جوهر الصقلي[١٠] ، وهذا ما يؤكد بأنه لم يكن يبحث عن المال فحسب ، بل وجد عند ذلك الخليفة الاطمئنان النفسي المتأني من الاستقرار الرحي النابع من الدين ، وإيمانه بمعتقداته التي أظهرها ، وجهر بها في أغلب قصائده ، والتي تمثل أهم معتقدات المذهب الإسماعيلي[١١] .

وقد ذاع صيته ، واشتهر حتى سُمّي متنبي المغرب[١٢] . مات الشاعر عام (٣٦٢هـ) ولم يتجاوز السادسة والثلاثين ، وتُروى في مقتله عدة روايات ، ولما بلغ المعز وهو في مصر ، خبر مقتله تأسّف عليه ، وقال هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق[١٣] .

ثانياً : مصطلح الخاتمة ونظرة النّقاد فيه

قبل الخوض في الحديث عن الخاتمة بوصفها مصطلحاً أدبياً يتحتم علينا التعريف بها لغةً ، إذ تعني عاقبة الشيء ، وآخرته ، وآخر القوم خاتمهم ، واختتام الشيء نقيض افتتاحه وختم فلان القرآن إذ قراه الى آخره ، والخاتمة لفظ مشتق من الفعل (ختم) وأصله : في وضع الطابع على الكتاب للدلالة على الفراغ منه ، والوصول الى آخره[١٤] ، أما معنى الخاتمة في الاصطلاح: فهو نهاية كل شيء له بداية ، وأول من أشار الى ذلك أرسطو في معرض حديثه عن المأساة فقال بأنها ((محاكاة فعل تام ، والتام هو ماله بداية ووسط ونهاية))[١٥] ، فأرسطو هنا يجعل أهمية النهاية بمنزلة ما للوسط ، والبداية من قيمة في العمل الأدبي ، وهذا ما أكده النقد العربي وان نظر في بدايته إلى البيت الشعري بوصفه وحدة مستقلة عن العمل الأدبي ككل، إذ نظر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وأكده في سياق تعريفه للشعر الجيد ، فقال ((بأنه الشعر الذي إذا سمع صدر البيت منه عرفت قافيته فكأن السامع يكون مترقياً لها))[١٦] ، شخص الجاحظ موضع القافية التي تتميز بوصفها المؤثر على السمع ، وما لذلك من دور في تحفيزه من المتلقي ، فيثير لديه عنصر التوقع، ما يوغل التعاطف الفكري بين قارئ النص وسامعه ، لذا أولوها النقاد عناية فائقة ، وفي ذلك قال ابن جني (ت٣٩٢هـ)((الا تراهم يتسمعون بحثوا البيت في اختلافه فإذا وصلوا الى القافية راعوا ووقفوا بين أحكامها ، أعني : في الروي والوصل والخروج والردف والتأسيس والحركات ؟ وسبب ذلك إنه مقطع والمعول في أكثر الأمر عليه))[١٧].

ومن النقاد من نظر إلى العمل الأدبي كله بوصفه وحدة متكاملة واشترط فيه لأن يتكامل، ويتجانس حتى يكمل بعضه بعضاً ، ومن أوائل من نظر هذه النظرة ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في سياق حديثه عن القصيدة الواحدة ، وتكامل أجزائها ، وترابط بعضها ببعض مع العلم بأن القصيدة العربية متكونة من أجزاء متعددة ، إذ يبدأ الشاعر بذكر الدمن والديار ، ثم التخلص فينتقل إلى وصف الرحلة ، والدابة ، فالغرض ، فالخاتمة ، وفي ذلك قال ابن قتيبة ((فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيملَّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظماءٌ الى المزيد))[١٨] ، نوّه الناقد إلى الوحدة العضوية في القصيدة وهذا ما أشار إليه الحاتمي بشكل صريح ومباشر القصيدة بجسم الإنسان واتصال أعضائه واكمال بعضها بعضاً[١٩] من هنا فقد نظر الناقد العربي إلى القصيدة من مطلعها فغرضها حتى خاتمتها ، ولم يترك جزءاً منها إلا وأمعن فيه النظر ، وأظهر محاسنه ، وانتقد عيوبه ، وعن تحسين الخاتمة تحديداً قال أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) ((ينبغي أن يكون آخر بيت في قصيدتك أجود بيتٍ فيها ، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها))[٢٠] نظر النقاد إلى الجانب النفسي للمتلقي وكيف سيعلق البيت الأخير في سمعه ؛لأنه آخر ما يقال منها ، لذا يجب أن يُحمل فيه الشاعر مضمون القصيدة كلها ، ويكون أثرى دلالة من أي بيت يسبقه .

ثالثاً: الخاتمة في ديوان ابن هانئ الأندلسي

تضمن ديوان ابن هانئ الأندلسي قصائد كثيرة وصلت إلينا بشكل تام غير منقطع وكانت أغلب تلك القصائد في غرض المديح ، وقد تنوعت مضامين ، وضروب خاتمتها ولدراسة تلك الخاتمة ، ارتأينا أن تكون هذه الدراسة مشتملة على محورين أساسين هما :

أ- أنماط الخاتمة (أنواعها) .

ب- اللغة الشعرية للخاتمة .

أ- أنماط الخاتمة (أنواعها) :

إن دراسة أنماط الخاتمة من الموضوعات الجديدة في الأدب العربي، إذ لم تحظَ الخاتمة بدراسة متعمقة من قبل الباحثين، وحتى النقاد مثلما حصلت عليه المقدمة ، والغرض، وما كان ذلك إلّا لأن الخاتمة دائماً ما تأتي لإتمام دلالة الغرض الأساس في القصيدة، ولم يدركوا بأن بعض الشعراء خرجوا في خواتم قصائدهم إلى أغراضٍ أخرى تخالف غرض القصيدة الأساس، وهذا ما سنجده في دراستنا لديوان ابن هانئ ، والتي وستكون بحسب كثرة ورودها في الديوان ، وفق الترتيب التالي :

١- **الخاتمة النوعية** ، والمراد بها ((إن كل نوع أو غرض من الأغراض تتميز خواتيمه بدلالة معينة أو متقاربة تدور معانيها حول ما يناسب هذا الغرض بمعنى أدق حول إحساس الشاعر تجاه الغرض))[٢١] ، فالخاتمة هنا تكون متصلة بالغرض الرئيسي من القصيدة ، وتدور في الفلك الذي يدور فيه أو قريب منه ، فمثلاً خاتمة المديح يتناول فيها الشاعر صفات الممدوح ، وكرمه، وشجاعته ، وخاتمة الرثاء تدور في الحديث عن العويل والبكاء ، وذكر صفات المرثي ، والتفجّع عليه وهكذا ، وقد كثُر هذا النوع من الخاتمة في قصائد الشاعر ابن هانئ ، وهذا له مسوغ إذ إن بعض قصائده كانت في غرض المدح التي تخلو من المقدمة ، ووصف الرحلة ، ثم التخلص ، فالغرض ، والخاتمة ، فهي قصائد ذات غرض واحد[٢٢] ، يدخل الشاعر إلى غرضه الأساس بشكل مباشر ومن البيت الأول ، ومن البديهي في مثل هكذا نوع من القصائد ستكون الخاتمة نوعية تصب في ذات الغرض من القصيدة ، ويعلل الدكتور محمد غنيمي هلال ورود الخاتمة النوعية في مثل هذه القصائد، فقال إنّ ((وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي الى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفته فيها ويؤدي بضعها الى بعض عن طريق التسلسل في الأفكار والمشاعر))[٢٣] ، ومن ذلك قوله في خاتمة قصيدة في غرض المدح:

شِهدتُ حقيقةَ علمِ الشهيـــ ـــدِ أنك أكرمُ من يُرتجى
فلو يجدُ البحر نهماً إليك لجادك مستسيغاً من ظمأ
ولو فارقَ البدر أفلاكه لقبلَ بين يديكَ الثرى
إلى مثلِ جـــــدواك تُروض المطيُّ ومـــــــن مثل كفيكَ يُرجى الفتى[٢٤]

لم يغادر الشاعر غرض القصيدة ، في المدح ، إذ وصف ممدوحهِ بالكرم، وهي صفة اعتاد الشعراء على الحاقها بمن يمدحون ، وما تأخير الشاعر لها ، وجعلها في خاتمة القصيدة ، وجعلها تستغرق أربعة أبيات إلا لأهميتها عند الشاعر ، وممدوحه ، وسامعه على حدٍّ سواء ، فتركها آخر القصيدة ، لأنها تبقى عالقةً في الأسماعِ والقلوب .

وقد تعبر خاتمته في غرض المدح عن عقيدته الاسماعيلية ، وهذا ما تقق في قوله :

فمدحك مفروض وحكمك مرتضى وهديك مرغوب وسخطك مرهوب
وذكرك تقديس وانت دلالةٌ وحبلُ تصديق وبغضك تكذيب
إلا إنمـا الدنيا رضـــاك لعاقــلٍ والا فـإن العيــش همٌ وتعذيــب
وإن طال قمــر في نعيم وغبـــــطــة فمـــــا هو إلا من بعيــنك مرغوب[٢٥]

وظّف الشاعر ايمانه بعقائده الاسماعيلية لإبراز ما ضمّنه في هذه القصيدة ، وبيّن منزلة الإمام في تلك العقيدة ، فهم يعتقدون بأن الإمام حجة الله على عباده ، وهاديهم إلى الطريق القويم موجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام ، ويعلو ولاية الإمام أحد أركان الدين ودعائمه بل ذهبوا إلى أن الولاية أفضل دعائم الدين وأقواها ، ولا يستقيم الدين إلا بها))[٢٦] ، وهذا ما أراد توصيله من خاتمته ، وهذا منهجه في الجهر بمعتقداته الإسماعيلية بصورة صريحة وواضحة .

أما خاتمة قصيدته في الرثاء فكان مضمونها قريباً من غرض القصيدة في إظهار محاسن المرثي ، وبيان مناقبه ، ومن ذلك قوله :

فقد يضحك الحي من الفقيد فتهزأ عظمه في الثرى
ومهما طلبت دليل الكرامِ فإن الدليل ائتلافُ الهوى
وليس الرماح بغير السيوف وليس العمادُ بغير البنا
ومن لا يُنادي أخاً باسمِهِ فليس يُخافُ ولا يُرتجى[٢٧]

فخاتمته جاءت موصولة مع غرض القصيدة في ذكر محاسن ذلك الميت واظهار التفجع عليه ، ومواساة أهله بهذه الفاجعة الأليمة، فنلحظ اتصال الخاتمة مع الغرض اتصالاً مباشراً ، وله من الدلالات المركزية المعبرة عمّا يخالج الشاعر من أحاسيس ومشاعر تتصل وتوضح غاية القصيدة . وهذا ما عمله في خمرية له ، إذ قام بوصف الخمرة ، وسحرها ، وما تفعله بالنفس حال دخولها لأحشاء شاربها ، حتى ختم قصيدته بذات الوصف ، فقال:

ولست أرضى بالأخ المذوق ولا اللسان العذب ذي التزويق
وقد أذل الأخ الشفيق كذلة العاشق للمعشوق
ولا تجزين البر بالعقوق وأغن من العدو بالصديق
وواصل الصبوح بالغبوق[٢٨]

كما نلحظ بأن خاتمته النوعية قد تميّزت بصفة الإجمال ، أي أن الخاتمة تكون وثيقة الصلة بغرض القصيدة ، وغايتها ، ويحاول الشاعر أن يُجمل كل ما أراد قوله في القصيدة لتكون مؤثرة على المتلقي ، وتعبر عن غايته وأهدافه من القصيدة كلّها[٢٩] ، ومن ذلك قوله في خاتمة القصيدة التي يمدح فيها جعفر بن علي :

أمنتُ بك الأيامَ وهي مخونةٌ ولو بيديك الخُلد أمنتي الحتفا[٣٠]

بيّن البيت دلالة مجملة لمعنى القصيدة بأجمعها ، عندما أوحى لمعنى مطلق اتصف به ممدوحه ، إذ جعل الأيام تخاف من ذلك الممدوح ، لشجاعته ، وبسالته ، ولو إن ممدوحه قد ملك الخُلد لأمِنَ

الشاعر من الوت ، وهذا معنى مطلق قد أجمل به الشاعر غاية المدح ، ونهاية الإشادة بالممدوح ، وقد تستغرق خاتمته المجملة مجموعة أبيات ، كما في قوله :

لقد جُدت حتى للمال طالبُ وأنفقت حتى ما لنفسه قدر
فليس لمن لا يرتقي النجم همةٌ وليس لمن لا يستفيد الغنى عُذر
وددت لجيل قد تقدم عصرهم لو استأخروا في حلبة العمر أوكروا
ولو شهدوا الأيام والعيش بعدهم حدائقُ الآمال موتقةٌ خضر
فلو سمعَ الثويب من كان رمة رفاتاً وليس الصوت من فمه قبر
لناديتُ مـن قد مـات : حبي بدولةٍ تقـــــامُ ولها الموتى ويرتجع العمر[٣١]

وضع الشاعر خاتمة كبيرة لقصيدته وصف بها كرم ممدوحه ، وازدهار عصره ، واستقرار دولته ابان حكمه ، حتى تمنى الأموات أن يسترجعوا حياتهم ليعيشوا ذلك العصر الذهبي ، في ظلِّ تلك الدولة المزدهرة ، وقد عمر بها الشاعر إلى ربط الأبيات بلحمة ايقاعية متميزة عن طريق أسلوب التضمين الذي يعني بأن يُبنى البيت الشعري على بيت يلحقه كي يتم معناه بحيث يكون الأول منهما مسنداً إلى الثاني فلا يقوم الأول بنفسه ، ولا يتم معناه إلا بالثاني[٣٢] ، وقد تعلقت أبيات الخاتمة بعضها ببعض بما أتاح للشاعر فرصة في بسط معانيه نتيجة اتساع الكلام ، وكبر مساحته ، وما اعتماده على هذا الفن العروضي إلا لأنه وسيلة من وسائل شد المتلقي كي يتتبع أبيات النص طلباً لإتمام المعنى[٣٣].

٢- **الخاتمة الصريحة** : هي خاتمة تتسم ، بالوضوح ، والصراحة ، إذ يعمد بها الشاعر إلى الاعلان ، أو الإشارة بأنها خاتمة القصيدة ، وانه قد وصل به المطاف إلى نهايتها[٣٤] ، وقد تم ذلك في ديوان ابن هانئ بطرق عديدة ، أولها :

الأسلوب الخطابي : وذلك باستعمال أساليب الخطاب المعروفة ، ومن ذلك قوله مادحاً المعز لدين الله :

إن كان للجود بابٌ مرتج غلق فأنت تدعي اليه كل اقليد
كان حلمك أرسى الأرض أو عقدت به تواصي ذرى أعلامها القوة
لك للواجب أولاها وآخرها عطاءٌ ، رب عطاء غير محدود
فأنت سيرت ما في الجود من مثلٍ باقٍ ومن آثر في الناس محمود
لو خلد الدهر ذاعرٌ لعزته كنت إلا حق تعمير وتخليد
تبلى الكـــــرام وآثـارُ الكـــرام ومـــا تزداد في كـــــــل عصرٍ غير تجديد[٣٥]

برز في الخاتمة أسلوب خطابي مباشر غير استعمال الشاعر لضمائر المخاطب المتمثلة بـ (الكاف ، وانت) التي خصّ بها الشاعر ممدوحه ، ووردت في ألفاظ عدة منها (حلمك ، سيرت، كنت ، انت) ، والتي أتمّ بها مضامين مع المدح بعد حديث طويل عن صفات ممدوحه ، وتمجيده واعلاء شأنه ، وان في تغيير أسلوب الكلام من الغائب (الأبيات التي سبقت الخاتمة) إلى أسلوب المخاطب (أبيات الخاتمة) ما أشعرنا بالوصول إلى خاتمة القصيدة ، كما أظهر صدق المشاعر التي يكنها الشاعر تجاه ممدوحه وكأنه يجاوره أمامنا ما يجعل النص أكثر مصداقية ، كما نلحظ إن البيت الأخير تحول الكلام فيه إلى أسلوب الغيبة ، ويبدو إنّ الشاعر أراد من ذلك بأن يجمع المعز لدين الله مع غيره من الكرماء الذين سبقوه ، وهذا لا يكون باستعمال ضمائر المخاطب لذا حول الكلام إلى الغيبة ، لدى هؤلاء الكرام غير حاضرين معه ابان قوله النص ، وإن في هذا التعبير جعل النص أكثر تعبيراً عن الواقع ، وعمّا يشعر به الشاعر تجاه ممدوحه من مشاعر صادقة ، وقد يستعمل ابن هانئ القسم بوصفه إشارة واضحة للخاتمة ، وهذا ما قام به في قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن علي ، فقال :

لم يشقِ جهدُ القول منه وإنني ... رهنٌ بـــه وكفيلــهُ كرهينــةٍ
جزتَ الكمال فقيلٌ معنىً مشكلٌ ... ينبو بيانُ القولِ عن تبيينهِ
أقسمتُ بالبيتِ العتيق وما حوتْ ... بطحاؤه من حجره وحجرية
ما ذاك إلا أن كـــــونـــك ناشئـــاً ... يســـــبب لهـــذا الخلقِ في تكوينهِ[٣٦]

استطاع الشاعر أن يوظف القسم في إظهار فضائل ممدوحه ، والتغني بأمجاده ، واتخذه وسيلة في إغراء ممدوحه لأجل الإكثار من العطاء ، فتزاوجت عنده صيغة القسم مع شكر الممدوح، فأنتج هذه الخاتمة التي تتميز بالمغالاة في المدح ، ومن الملاحظ في الخاتمة التي تشتمل على القسم بأن الشاعر يعمد فيها إلى استعمال لفظ (أقسمت) ، كما مرّ في النصّ السابق ، وكما في قوله :

أقسمتُ لولا أن دُعيتَ خليفةً ... لدعيتَ من بعد المسيح مسيحا
شهدتْ بمـــفـــخـــركَ السماواتُ العُلـى ... وتنـــزلَ القرآن فـــــيـــك مديحـا[٣٧]

إن في استعماله للفعل (أقسمت) ما يشير إلى الخاتمة بشكلٍ صريح ، لطرحه اللفظ في تعبيره عن القسم ، فضلاً عما يضيفه هذا الفعل من النشاط والحيوية على النص ، كونه فعلاً ، والأفعال عموماً ، تخلق جواً من الحركة والنشاط بين مفاصل أي نص تكون فيه ، وقد يشتمل هذا النوع من الخاتمة على اسم الممدوح لتصبح أكثر صراحة ، ومباشرة ، كما في قوله وهو يمدح جعفر بن علي:

خـلق الإله الأرض وهي بلاقــعُ ومكان مـــا تطأون منها أهل
وبرا الملوك فجاد مـــــنهم جعفرٌ وبـــــنو أبيه وكـــل حي باخل
لو لـــم تطيبـــوا لـم يقلَّ عد يدكمُ وكذاك أفـــراد النجـــوم قلائل[٣٨]

إنّ في ذكره لاسم الممدوح بشكلٍ صريح ما أعلن به خاتمة قصيدته التي تعاضد معها المدح مع ذكر اسم الممدوح ، وقد يعمد إلى ذكر اسم الممدوح مع الدعاء له ، كما في قوله وهو يمدح زكريا بن يحيى بن علي الأندلسي:

أيا زكريا الأغـــــــرّ أحب بها وقـائع الرحمن القريض فألهجا
لتهنئتـــك أمثـــال القوافي سوائرا وكـــنتُ حرياً أن تسير وتبهجا
فدمْ للشبـاب بالمرجحن وعصـــره تؤملُ فينا للخطـوب وترتجى[٣٩]

لقد تعاضد ذكر اسم الممدوح مع الدعاء له لإظهار الخاتمة بشكلٍ صريح ، وإن ((خاتمة الدعاء من أنسب ألوان الخواتيم التي تصلح للمدائح وتصلح شعراء معينين ، فالدعاء وسيلة للكسب والارتزاق ، والدعاء محاولة إمالة قلب الكرماء من الممدوحين للبدل والعطاء))[٤٠]، وإن الخاتمة التي تشتمل على الدعاء قد اعتاد على قولها بعض الشعراء ، وخاصة قصائد المديح النبوي[٤١] ، وهذا ما أراد الشاعر إيصاله كونه قد أمن بمعتقدات مذهبه الاسماعيلي التي تقدس الإمام ، وتُعلي من شأنه كثيراً ، وكان الشاعر يظهرها بشكلٍ صريحٍ ومباشر.

٣- **الخاتمة المبتورة (المفتوحة)** : هي الخاتمة التي تشعرنا بأن معاني القصيدة لم تنفذ ، وهناك ما يمكن قوله بعدها ،و فيها يشارك المتلقي في تفعيل مخيلته لإنتاج نهاية للنص ، وإضافة ما يناسبه من معانٍ جديدة ، مما يحول النص الى نص كتابي[٤٢] ، وهو نوع وارد في أشعار العرب، إذ ذكره ابن رشيق القيرواني في قوله : ومن العرب من يختم القصيدة ويترك نهايتها مفتوحة للمتلقي ومن ذلك في قول ابن هانئ وهو يمدح المعز الفاطمي :

إليك يقرُّ المسلمـــون بأمرهم وقد وتروا وتراً وانت مُقيد
وإن أمير المؤمنيـــن كعـــــهدهـــم وعنـــــــد أمير المؤمنين
مزيـــد[٤٤]

فلفظة (مزيد) التي جاءت نهاية البيت الأخير في الخاتمة تشير إلى أن هناك أفعال يقدر أن يقوم بها ذلك الخليفة ، ويمكن للشاعر أن يقولها إلا إنه أراد السكوت عنها ليترك لسامعه حرية تخيل تلك الأفعال بما في ذلك من الصاق ، كما الأفعال الخمسة التي يمكن أن يتخيلها السامع ، والتي يمكن أن

يقوم بها الخليفة ، و هو بذلك قد أعطى لمديحه صفة الاتساع في المعاني، والشمول في الأفعال الموحى إليها بذلك اللفظ . ويمتاز هذا النوع من الخاتمة بأنه ينتهي بأسلوب الاستفهام الذي يوحي بالاسترسال بالكلام ، كما في قوله ويهجو كاتب جعفر :

مثل هذا العميد بالجيت والطا غوت منهم والهائم المشوف
ما استضاف الهجاء حتى تأنا ك أيا جعفر بغير مضيف
إن تسترت عن عياني فما جـ لةُ عيني في الخيال المطبوق؟

وظّف الشاعر أسلوب الاستفهام الذي يشير رفعة المتلقي في سماع الجواب المقولة عن ذلك السؤال ، كما استثمر الدلالة المجازية التي تولدت نتيجة الاستفهام الإنكاري ، الذي زاد من دلالة الاستفهام من المهجو بما أوحى بصفة التواصل بين الخاتمة والغرض والهجاء ، وإن المتأمل في الخاتمة يجدها توحي إلى معانٍ مجازية كثيرة تفيد الغرض الرئيس من العقيدة ، مما يعزز دلالة النص ، ويُثري معانيه .

نستنتج إنَّ هذا النوع من الخواتيم (المفتوحة) تتضمن في تركيبها ما يشير إلى المستقبل، أو معناها يشير إلى عدم الانتهاء وترك المجال أمام للمتلقي بتشكيلها وإعادة صياغتها بطريقة تحليلية مبتكرة وهنا تكمن قوة ابداع القارئ الحذق.

٤- **الخاتمة الذاتية** : كثيراً ما فخر الشعراء بأنفسهم ، واعجبوا بأشعارهم : ((وربما بدت هذه الظاهرة أو هذا الجزء الإعجاب الذاتي بشعر الشاعر عند بعض الشعراء العرب المتميزين ، والذين امتلكوا مكانية فنية عالية في سماء الشعر العربي ، أمثال أبي تمام ودعبل الخزاعي والبحتري والصنوبري))[٤٥] ، وعمد ابن هانئ إلى هذا الإعجاب في بعض خواتمه ، كما في قوله وهو يمدح الخليفة المعز لدين الله :

ولما تلقتك المواسم آنفاً تربصتُ حتى جئتُ فرداً بموسمِ
ليعلم أهلُ الشرق والغرب أنني بنفسي لا بالوفد كان
تقدمي[٤٦]

إنّ تفاخر الشاعر بنفسه جاء عن طريق الموازنة ، إذ وازن نفسه ومقدرته الشعرية ومنزلة شعره مع باقي الشعراء ، وجعل قيمة شعره أكبر من قيمة ومنزلة وفدٍ من الشعراء ، وهو هنا لم يفاخر أبناء بلده (الأندلس) فحسب ، بل فاخر شعراء المشرق ، والغرب وهذا يذكرنا بمقولة الخليفة المعز دلين الله عندما سمع بموت الشاعر ، إذ قال : ((هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق))[٤٧] ، وقد يختلط هذا النوع من الخاتمة عنده مع غرض القصيدة ، كما في قوله وهو يمدح ابراهيم بن جعفر:

هاك إحدى المحبراتِ اللواتي لم أشبْ صدقها بزورٍ وإفك
نظمُها محكمٌ فقارن بين الـ درِّ نظمي وأخلص التبر سبكي

ولقداً أخذتُ من شكر نُعما ك بحظي فكان أخذي كتركي
يُؤتُ بالعجز عن نـداك وقـــد أجـ ـهدت نفسي فـــقلتُ للنفس قَدك[٤٨]

لقد وثق الشاعر بنفسه لدرجة كبيرة وصلت إلى حد الغرور حينما شبه أبيات قصيدته بالدر والتبر ثم عرج على وصف ممدوحه ، وكيف أغدق عليه بالهدايا سابقاً حتى ألزم نفسه بالتوقف عن طلب العطاء نتيجة ما سلف عليه من العطايا الوفيرة ، والهدايا الجزيلة في وقت سابق، وهو هنا يذكر الممدوح بتلك الهدايا ، كي يعطيه غيرها الآن بأسلوب جديد، ومبتكر .

٥- **خاتمة الحكمة** : أبسط تعريف للحكمة إنها ((قول بليغ ، موجز صائب يصدر عن تجربة متميزة في الحياة))[٤٩] ، وقد عرف الشعر العربي الحكمة منذ نشأته فالحكمة ((أحد أصناف الشعر ينتزعها الشاعر من تحاربه وممارساته الشخصية في الحياة ولا تصدر إلا عن عقل واعٍ ، ورأي ناضج فتلقفها جوارح الإنسان لتعلق بالألسنة ، وتسكن القلوب))[٥٠] ، فضلاً عن تميّزها بصفتي التكثيف والإيجاز ، التكثيف الدلالي لمعانيها ، والإيجاز اللفظي لألفاظها ، ما يجعلها فنّاً أثيراً عند العربي عامة ، والأديب خاصة ، ولم تظهر الحكمة كثيراً في خاتمة قصائد الشاعر ابن هانئ ، وذلك ربما لانشغاله بمدح خلفاء الدولة الفاطمية وإيمانه العميق بشخصية الخليفة المعز لدين الله بالذات وانشغاله بإظهار صفاته الحسنة ، وأشعاره لمعتقداته الاسماعيلية التي أمن بها ما شغله عن الإكثار من الحكمة في خواتم قصائده ، ولذا فقد ربط الحكمة بالمدح ، كما في قوله وهو يمدح جعفر بن علي الأندلسي ويهنئه بأخذ قلعة كتامه :

ومثلــك من أرض الخليفة سعيُــهُ فإنّ رضيَ المولى فقد نَصَحَ العبد

إنّ الحكمة التي جاءت في الشطر الثاني ما تتضمن معنى المديح إذ إنه أشار إلى نصَح الممدوح وحسن عمله الذي قام به في فتحه لقلعة كتامه وإعلانه النصر فيها ، ما يدّل على رضى المولى عنه ، وهنا إشارة إلى المعز الفاطمي الذي كان طالما خصه بمدائح كثيرة في ديوانه.

نخلص مما تقدم بتنوع خاتمة القصيدة في ديوان ابن هانئ الأندلسي ، وكانت على خمسة أنواع وهي الخاتمة النوعية ، والخاتمة الصريحة ، والخاتمة المبتورة ، والخاتمة الذاتية ، وخاتمة الحكمة التي انحسرت كثيراً نتيجة انشغاله بغرض المديح والإشهار بمبادئ الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي ، وإن في تنوع الخاتمة في ديوانه ما يدل على سعة ثقافته ، وعنايته بفنّه الشعري بما أخفى صفة التوسع الدلالي ، وإثراء المعاني في ثنايا ديوانه ما أضاف مسحة أدبيّة جميلة في مختلف قصائده.

رابعاً : الذاتية الفنيّة لخاتمة القصيدة في ديوان ابن هانئ

يعد الأسلوب مجموعة من الإمكانيات التي تعلقها اللغة للأديب كي يعبر عن أفكاره ، ومشاعره بالشكل الذي يميزه عن باقي الأدباء والشعراء ، وسنحاول في هذه الفقرة دراسة الإمكانيات في خاتمة القصيدة عند الشاعر ـ موضع الدراسة ـ وفق مستويات ثلاث هي :

١- المستوى اللفظي .

٢- المستوى التركيبي .

٣- مستوى الصورة الفنّية .

١- المستوى اللفظي :

ينبغي هنا أن نتوقف عند ألفاظ ابن هانئ التي استعملها في خواتيم قصائده ، لما لتلك الألفاظ من أهميّة كبيرة في اظهار المعنى الذي أراده الشاعر بأدق صورة إذ انّ ((كل تأليف صوتي ينتج عنه دلالة معيّنة))[٥١] ، وإن المتأمل لألفاظ خاتمة قصائد الشاعر يجدها تتصف بالسهولة فلا أثر للتعقيد فيها ،ن فلا يحتاج من يقرأها للرجوع للمعجم لأجل فهم معناها ، مثل قوله:

فمدحك مفروضٌ وحكمك مرتضى ... وهديك مرغوب وسخك مرهوب
وذكرك تقديسٌ وأنت دلالةٌ ... وحبك تصديقٌ وبغضك تكذيبُ
ألا إنما الدنيـــا رضا لعاقـــــلٍ ... وإلا فـإن العيش همٌّ وتعذيـــــبُ
وإن طـــال عـــــمرٌ في نعيمٍ وغبطةٍ ... فما هو إلا من يعـــــينك موهوب[٥٢]

يبدو إن الشاعر سلك هذا المسلك في خاتمة قصائده كونها آخر ما يبقى عالقاً في أسماع المتلقين وعقولهم ، فأرادها أن تُفهم من قِبل كل الناس يختلف طريقهم ، ويصل معناها لهم بيسر وسهولة ، كونه يخاطب عامة الناس ، ويخاطب شعباً تحت إمرة هذا الخليفة ، ومن المؤكد بأن ذلك الشعب متكون من طبقات عدة ، وهو بتلك الألفاظ السهلة أرادها أن تصل الى تلك الطبقات بمختلف أجناسها وثقافاتها .

كما نلحظ صفة أخرى على ألفاظه الا وهي صفة التجانس بين اللفظ والمعنى ، أي إن اللفظ يرق في موضع الرقة ، بينما يعنف في موضع العنف ، ففي قوله وهو يختم قصيدة مدحٍ قال :

ولبست ما ألبستني من نعمةٍ ... فبها شكرتك لا بطولِ لساني
إنّي مدحتك إذ مدحتك مخلصاً ... حتى إذا ما ضاف ذريعُ بياني
كادتْ تسيلُ مع المدائح مُهجتـي ... لولا ارتباط النفس بالجثمـانِ[٥٣]

نلحظ إنّ الألفاظ قد تميزت برقتها ، وليونتها ، كي تعبر عن امتنان الشاعر بما أفضاه عليه الممدوح من هدايا ونعم ما أوصله الى أن يَسيل دموعه من فرط الشكر ، فاستعمل ألفاظاً تشير الى تلك الرقة مثل (لبست ، وألبستني ، ونعمة ، ومدحتك ، مخلصاً ، وتسيل ، ومهجتي، والنفس) كلها ألفاظ تميّزت بعذوبتها ورقتها ، لتعبر عن الحالة الشعورية التي تختلج في وجدان الشاعر إبان تلك اللحظة ، وذلك الموقف وفي موضع آخر نجده يستعمل ألفاظاً غليظة شديدة تناسب الموقف الذي يعبر عنه ، كما في قوله مادحاً :

يطيف بطلق الوجه للعرف قائلٍ ... وبالعرف أمارٍ وللعرف فاعل
بمبسوط لحقّ الجود للرزق قاسمٍ ... ومسلول سيف النصرِ للدين شامل
فتىً كل سعيٍ من مساعيه قبلةٌ ... يُصلّي إليها كلُّ مجدٍ ونائل
وفي كل يـومٍ للشعـــر مـــــذهـــبٌ ... على أنهُ لم يبقِ قـــــــولاً لقائـــل[٥٤]

وصف الشاعر ممدوحه بصفات متعددة ، فهو طلق الوجه ، وجواد وشجاع في المعارك، وضليع في الشعر ، وهذه المعاني تحتاج الى ألفاظ جزلة قوية تبين تلك الصفات ، وتلحقها بالممدوح ، بقوة وصلابة بسبب تعددها ، وابتعادها الواحدة عن الأخرى في الدلالة والمضمون ، وهذا التوافق هو ما أشار إليه نقادنا القدماء في مناسبة الموقف ، وانتقاء ما يوافقه من الألفاظ ، وأشار إلى ذلك الجاحظ (ت٢٥٥هـ) لما ذكر صحيفة بشر بن المعتمر (ت٢١٠٥هـ) في كتابه البيان والتبيين ، إذ قال ((ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يُقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات...))[٥٥] ، كما أشار إلى هذا المعنى ابن طباطبا العلوي (ت٣٢٨هـ) فقال ((للمعاني ألفاظاً تشاكلها ، فتحسن في بعض ، وتقبح في غيرها ، فهي كالمعرض للجارية الحسناء ، التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض ...))[٥٦] . أما منبع الألفاظ في خاتمة قصائده ، فقد تنوعت منابعها ، ويمكن تصنيفها إلى ما يأتي :

ألفاظ الشجاعة : كثرت هذه الألفاظ في خاتمة قصائدها ؛ لأن أغلب تلك الخواتيم كانت نوعية تتبع الغرض الرئيس من القصيدة ـ كما أسلفنا ـ ولما كان أكثر قصائد ديوانه في غرض المديح ، ولما كانت أغلب نمط في الخاتمة لديه هي الخاتمة النوعية ، فمن البديهي سيكثر في معجمه تلك الألفاظ ، إذ تميز ممدوحه بالشجاعة ، ومن تلك الألفاظ الأغر ، الخطوب ، النصل، الاعادي ، فارساً ، وغيرها .

وألفاظ الكرم لما كانت هذه الصفة من أهم صفات القائد الجيد عند الشعراء ، لأن هدفهم الأول هو الحصول على عطايا الممدوح ومن أجل ذلك يمدحون ، لذا كثر هذا النوع من الألفاظ في خاتمة قصائده مثل (جواد ، كريم ، الندى ، الغيمة البكر ، عطاياك ، النعم ، الغيث) وغيرها، كما تطالعنا

ألفاظ الدين التي ارتبطت بالعقيدة الإسماعيلية التي تنص على تقديس الخليفة ، والاعتداد بإمامته ، ومن تلك الألفاظ (الإمام ، وحي الله ، التنزيل ،خليفة الله ، ولي ، تنزل القرآن، الملائكة ، ابراهيم) ، وهذا كله يشعرنا بأن الشاعر قد اعتنى بانتقاء ألفاظه الشعرية كي تعطي دلالات معينة أراد إيصالها من أشعاره عن معتقداته المذهبية ، وإيمانه بالخليفة المعز لدين الله ومن يحيط به من قادة جلبوا له النصر والتقدم الذي يعد نصراً للشاعر بحد ذاته .

٢- **المستوى التركيبي** : لا يمكن لأي لفظ أن يعبر عن معنى لذاته ، إنما يتحقق ذلك عندما ينسجم ذلك اللفظ مع مجموعة ألفاظ لتشكل تراكيب معينة تعبر عن معنى محدد يريد إيصاله الشاعر ، وسنحاول في هذه الفقرة دراسة بناء الجملة في خاتمة القصيدة عند ابن هانئ يوما يترتب على ذلك البناء من مضامين تسهم في إغناء النص بالمعاني المؤثرة والأساليب المعبّرة .

وإن المتأمل للبناء العام لتراكيب تلك الخواتيم يجدها قد تكون معظمها على بناء فعلي ، أي يجد هيمنة واضحة لتركيب الجملة الفعلية دون الاسمية ، وهي هيمنة لها مسوغها ، للجملة الفعلية من دلالة متمثلة في خلق أجواء الحركة بين مفاصل القصيدة ، مما يسهم في تعميق المعنى واخفاء الأثر الحسي والمعنوي عليها ، ومن ذلك قوله :

ما تنمي ريب زماني بالذي أبتغيه وهـــو مالـــت أجد
ولقد فاتَ بنـــا أنفسنـــا وإذا ما فاتَ شيءٌ لم يرد
ليتَ شعري أي شيء يرتجي من رجاه أو لماذا يستعد
فلقد أسرعَ ركـــبٌ لـــم يَحُـــجْ ولقـــد أدبـــرَ يـومٌ لـــم يَعُـد(٥٧)

يبقي الشاعر خاتمته على توالي جمل فعلية متعددة ، والأفعال هي (فتني ، ابتغيه ، أجد، فات ، يرد ، يرتجى ، يستعد ، أسرع ، يحج ، أدبر ، يَعُد) وما يتولد من تلك الأفعال من معاني تدل على الحيوية والحركة والاستمرارية ، أي تدل على استمرارية تغير الزمان بأهله ، وما نحصل به من فواجع على مر العصور والأزمنة ، وإن الشاعر دائماً ما يفوته ريب الزمان ، وتمر عليه مصائبه ، واستمرارية حدوث ذلك الحدث في المستقبل له ، وهو هنا يعطي بعداً آخر لخاتمته، إذ إنه لم يعبر عن حاله فحسب إنما ذكر هذه الخاتمة التي أعطت معنى عميقاً ينطبق على جميع البشر ف كل زمانٍ ومكان ، فكل إنسان معرض لمصائب الدنيا بفقد حبيب أو عزيز، أو بفقد عافية ، أو المرور بضائقة مالية وما إلى ذلك من مصائب الدنيا التي دائماً ما يبتلى بها الإنسان، وهذا المعنى ربما لا تحققه الجملة الاسمية التي تنماز بخاصية الثبوت والاستقرار ، ونجد هذه الخاصية التي تميزت بها الجملة الاسمية في موضع آخر لما قال :

ولما مدحت كيما زيدك سجداً هل في كمالك موضعٌ لمريد
مالي وذلك والزيادة عندهم في المدّ نقصانٌ من المحدود
أثنـــــي عليك شهـــادة لك بالعلى كشهـــــــادتـــي لـتك
بالتوحيـــد(٥٨)

تشكلت الخاتمة من مجموعة من الجمل الاسمية التي توالت بشكلٍ متواصل يوحي على الاستقرار ، لما تتسم به الجملة الاسمية من سمة تدل على الثبات والاستقرار ، وهذا يدّل على ثبات الصفات الحسنة التي مدح بها ممدوحه ، التي ضمها جميع مفاصل القصيدة ، وختمها بالجمل الاسمية كي تدل على ثبات ذلك الصفات في ممدوحه واستقرارها عنده دون غيره ، كما تدل على ثبات مشاعر تجاه ذلك الممدوح ، واستقرار نفسه دائماً في وصف ممدوحه ، ومحبته له، ودعم ذلك الثبات باعطاء حجة استدلالية مقنعة حينما قرن تلك المشاعر في وجدانه بشهادة التوحيد على مالها من قدسية منفردة عند الإنسان ، ليس عند المسلمين فقط بل في جميع الأديان السماوية، وهي حجة دامغة تعبر عن إيمان الشاعر بذلك الممدوح ، وثباته في الإخلاص له كما يؤمن العبد الموحد بربّه ، ويشهد بوجوده .

كما عرج على استعمال بعض أساليب القول ، كاسلوب الشرط الذي ورد في بعض خاتمات قصائده ، ومن ذلك قوله :

لو لم تكن سبب النجاة لأهلها لم يُغنِ إيمانُ العباد فتيلا
لو لم تعرفنا بذات نفوسنا كانت دينا عالماً مجهولاً
لو لم نفضْ في البرية نائلٌ لو لو لم كانت مفوفة الرياض محولا
تكن سكن البلاد تضعفت لو لم يكن ولذيلتْ اركانُها تنزيلا
فيكَ اعتبارٌ للورى لو كنت قـــــبل ضلوا فلم يكن الدليل دليلا
تكون جامـــــــــــــع ما نيلـــــَ مـــن حُرمتنا مانيـلا
شـــــــــمـــلنا (٥٩)

يرى الشاعر أسلوب الشرط في الأبيات كلها مستثمراً ما لهذا الشرط من قوة في الطرح ، وارتباط الكلام بعضه ببعض ، وربط الأبيات بالجملة (فاعلية ، ودلالية فريدة سواء في البيت الواحد وذلك بارتباط فعل الشرط مع جوابه ، أو بارتباط الأبيات كلها كونها قد اعتمدت على أسلوب خطابي واحد) ، فضلاً عن التوافق الدلالي الذي يجمع بين جملة فعل الشرط مع جوابه بسبب ارتباط بعضها مع بعض في الدلالة ، والمضمون ما يشد ذهن المتلقي ، ويثير اهتمامه وانتباهه تجاه تلك الأبيات ، لذا استعمل ذات الأسلوب في خاتمة أخرى ، فقال :

ولو أن نصل السبق ينطق في فمي لارتدَّ ينبو عن عُلاك وينكل
ولو أن شكري عن لسان الوحي لم يبلغ مقالي ما رأيتك تفعـــل(٦٠)

وعمد إلى التقديم والتأخير في هذا الأسلوب ، فقال :

كادت تسيل مع المدائح مهجتي لولا ارتباط النفـــس بالجثماني

قدّم وأخّر الشاعر في أسلوب الشرط فتقدير الكلام : لولا ارتباط النفس بالجثماني ، لسالت مع المدائح مهجتي مستثمراً ما للتقديم والتأخير من تأثيرٍ في الكلام ، إذ يشد ذهن المتلقي، ويحفز فيه عنصر الادهاش فيجعله أكثر تشوقاً للنص ، واقبالاً عليه ، وغاية التقديم هنا امران هما : الاختصاص والتوكيد ، فان توكيده على مشاعره وتصويره لمهجته التي كادت ان تسيل مع تلك المدائح التي شعر بتفاصيلها ، وآمن بدقائقها في داخله ، ما جعله يقدم جواب الشرط على فعله ، والأمر الثاني : مراعاة نظم الكلام ، وذلك "ان يكون نظمهُ لا يحسنُ الا بالتقديم ، واذا اخر ذهب ذلك الحسن وهذا الوجه ابلغ واوكدُ من الاختصاص"[٦١] ، وهذا ما جعله يستعمل ذات الاسلوب (التقديم والتأخير) في قوله:

فتىً كل سعيٍ من مساعيه قبلةٌ يُصلي اليها كل مجدٍ ونائل[٦٢]

اذ قدم الجار والمجرور (إليها) على الفاعل (كل مجدٍ ونائل) فالأصل في الكلام يصلي كل مجدٍ ونائل إليها ، وما كان التقديم والتأخير الا لغرض الاختصاص ، إذ أراد الشاعر التوكيد على الموقع المخصص والذي أشار اليه في الجار والمجرور ، ليكون قبة يُصلي إليها.

نخلص من ذلك : إنَّ الشاعر احسن تركيب جمله ، وعباراته في خاتمات قصائده ، لأن غايته في ذلك انتاج نصوص متعددة المواقف ، يخاطب بها الناس جميعاً بمختلف طبقاتهم ، عبر استعمال عبارات متنوعة ما أظهر أحداث القصائد بكل تفاصيلها.

٣- مستوى الصورة الفنية : وصف الجاحظ الصورة بقوله "انها صناعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير"[٦٣] ، وجعلها قدامه بن جعفر(ت٣٣٧هـ) شكل الشعر ، ومادته المعاني كالخشب للنجار ، والفضة للصياغة[٦٤] ، والصورة في ابسط تعريف لها ، كما "انها رسم قوامه الكلمات"[٦٥] وهي تعني بانها اية هيأة تثيرها الكلمات الشعرية في ذهن المتلقي ، بشرط ان تكون هذه الهيأة معبرة ، وموحية في آنٍ واحد[٦٦] ، ولا يمكن للصورة ان تكون معبرة ، ومؤثرة ما لم يعتمد فيها الشاعر على بعض المقومات البلاغية من علوم البلاغة الثلاث ، علم المعاني ، وعلم البديع، وعلم البيان ، وقد حاول ابن هانئ ان يعتمد على بعض تلك الفنون ، وان يوظفها في خاتمة قصائده ، فعمد إلى اساليب المجاز بشكلٍ يجعل المتلقي يتفاعل معه ، ويفهم دقائق صوره ، ففي قوله:

وقعات نصرٍ في الاعادي حدثت عن يوم بدرٍ قبلها وتبوك

هل اتت تاركُ نصل سيفك حقبةً في غِمدة ام ليس بالمتروك

لو يستطيع الليل لاستعدى على مسراك تحت قناعهِ الحلوك(٦٧)

تحدث الشاعر عن شجاعة ممدوحه ، وقوة بأسه على اعدائه حتى احدث فيهم نصراً بعد نصر ليشابه واقعة بدر ، وتبوك ، مستثمراً ما لهاتين الوقعتين من اثرٍ عظيم في نفس العربي خاصة ، والمسلمين عامة ، كونها قد جسدتا احداثاً تاريخية مهمة رسمت تاريخ الدين الاسلامي وتغيّر حال الأمة من بعدهما فكان لهذا التشبيه وقع مميز في نفس المتلقي ، ثم عمد إلى استعارة تشخيصية في البيت الثالث ، لما جعل الليل كالشخص الذي يرتدي قناعاً من السواد الحالك الذي يحيط بكل جوانب المكان كي يتمكن من الاحاطة بجيش ذلك الممدوح ، ومن المعروف بأن كل جيش يُحاط به من كل جوانبه سيهزم لا محالة ، إلا ان الشاعر جعل ذلك الليل الذي انتشر بكل جوانب الجيش لن يتمكن من هزيمة ذلك الممدوح ، وجيشه ، وهو بذلك يصور مدى شجاعة الجيش وقائده بحيث لا يتمكن أحد من ان يهزمهم ، عبر استثمار مقومات تشخيصية شعر بها الشاعر وتمكن من تصويرها ، وعمد إلى ذات الاسلوب وهو يصف بلاغة ممدوحه في قوله:

تمشي البلاغة خلفكم وامامكم ويطيب ما تطؤون بالاقدامِ

وتكاد تُعشب ارضكم بكلامكم لو ان ارضاً اعشبت بكلام(٦٨)

شخص البلاغة وجعل منها جسماً يمشي خلف ممدوحه ، وامامه ، ثم عمد إلى اسلوب مجازي عندما جعل الأرض تعشب من كلامه ، والأرض تطيب لما تطؤها اقدامه ، لغرض تفخيم امر ممدوحه ، والاعلاء من شأنه ، مخاطباً اياه بأسلوب الجمع لما يحمل ذلك الاسلوب من تفخيم، وتعظيم وتبجيل للمخاطب ، وذلك عبر استعمال ضمير الجماعة الذي التصق بالألفاظ (خلفكم ، امامكم ، كلامكم) ما انتج نصاً ختامياً معبراً عن عظم ذلك الممدوح ، وعظم مشاعر الشاعر تجاهه.

والطباق احد الاساليب التي وظفها الشاعر لإبراز صوره الختامية ، ومن ذلك قوله مادحاً:

وبرا الملوك فجادَ منهم جعفرٌ وبنو ابيه وكل حبيّ باخل(٦٩)

إذ طابق بين (جاد–وباخل) ليرسم صورة للنهج الذي سار عليه ممدوحه وبنو ابيه ، فهم الكرماء الذين يبذلون المال ويقابل باقي الاحياء في الطرف الاخر من البخل وعدم العطاء ، وهذا ما اكده لما شهد لنفسه بانه بار في قوله لاثم عندما قال:

شهدتُ بما ابصرته وعلمتهُ شهادةَ برٍ لا شهادةَ اثم(٧٠)

وتوظيف الشاعر لهكذا أساليب بلاغية معبرة له قيمة دلالية للنص الختامي ولأهمية في اظهار صوره ، ولا يكتفي الشاعر بالطباق ، فيعمد إلى المقابلة ، والمقابلة هي "الجمع بين عدة الفاظ واضدادها في الكلام"[٧١] وهي اعمّ من الطباق واشمل[٧٢] ومن ذلك قوله:

واذا بعدت فكل شيء ناقصٌ واذا قربتَ فكل شيء كامل

إذ طابق بين (بعدت–وقربت) ، وبين (ناقصٌ–وكامل) ما كثف دلالة البيت وربطه بلحمة ايقاعية جميلة ، لما للمقابلة من تنغيمٍ موسيقي اخذ ، فضلاً عن فجوة التوتر التي تثيرها الاضداد المتقابلة في ذهن المتلقي ، هذه الفجوة التي تساهم في تثبيت الخاتمة وتمركزها في النص.

وخلاصة القول الصورة الشعرية في خاتمة القصيدة عند ابن هانئ الاندلسي ، بانه قد ابدع في رسم الصورة المؤثرة التي تجعل خيال المتلقي في استثارة متواصلة ، ليعيش اجواء الوقائع، والاحداث التي نقلها الشاعر في نصوصه ، كما نلحظ بان صوره كانت تتجاذب بين طرفي الحقيقة والمجاز ، بما يمكن حملها على الجانبين ، وما كان ذلك الا لأجل التأثير على الممدوح بالدرجة الأولى لغرض نيل الهدايا والنعم ، والتأثير على المتلقي بالدرجة الثانية لأجل اثبات قدرته الادبية، وامكانيته الشعرية حتى يكون مجده الادبي بين شعراء الاندلس خاصة ، وشعراء العرب عامة ، وكان له ذلك.

الخاتمة

ومن أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث:

١–لقد تنوعت الخاتمة في ديوان ابن هانئ الاندلسي ، وجاءت على خمسة انماط وهي الخاتمة النوعية ، والخاتمة الصريحة ، والخاتمة المبتورة (المفتوحة) ، والخاتمة الذاتية ، وخاتمة الحكمة.

٢–تصدرت الخاتمة النوعية باقي الانماط وجاءت بشكل كثير وتمكن في ديوان الشاعر ، وذلك لأن اغلب قصائده كانت تدخل ضمن قصائد الغرض الواحد ، اي ان الشاعر يدخل في موضوعه بصورة مباشرة دون مقدمه ، ويبقى يلازمه حتى خاتمة القصيدة.

٣–إنَّ المتأمل لخاتمة قصائد ابن هانئ يلمح فيها صدق الشاعر في تعامله مع ممدوحه ، كما نلمح صدقه في عرض أفكاره ، واسلوب التعبير عنها، وهي تعبر عن موقف نفسي عقائدي ، كون ان ذلك الممدوح يمثل معتقد ديني آمن به الشاعر ، عمل على الافصاح عنه ، وكانت الخاتمة تعبر عن صدق موقف في القصيدة كونها تعبر عن اجمال التجربة التي مر ذكرها في أثناء القصيدة.

٤–عنيّ الشاعر بألفاظ خاتمته وارادها ان تكون سهلة ، بسيطة ، وفي ذات الوقت بعيدة عن الركاكة ، والابتذال ، لغاية الوصول إلى عامة الناس ، ولكل الطبقات ولا تقصر على الطبقة المثقفة فحسب .

٥-عبر دراسة المستوى التركيبي تبين لنا هيمنة واضحة للنظام الفعلي على أحداث الخاتمة في قصائده ، وهذا من شأنه إضفاء الحركة ، والنشاط ، والحيوية والاستمرارية على مفاصل الأبيات بينما استثمر دلالة الجملة الاسمية في الثبوت والاستقرار حينما يستلزم المعنى ذلك ، كما وظف بعض المقومات البنائية كالتقديم والتأخير ، بما يحتاجه المعنى.

الفهارس

١-الاحاطة في اخبار غرناطة :٢٨٨/٢.

٢-ينظر : شذرات الذهب في اخبار من ذهب :٤١/٣ ، والاحاطة في اخبار غرناطة :٢٨٨/٢.

٣-وفيات الاعيان : ٤٢٤/٤.

٤-ينظر : معجم الادباء : ٩٢/١٩.

٥-م.ن : ٩٢/١٩.

٦-الاسماعيلية فرقة من الشيعية قالت بإمامه إسماعيل بن الامام جعفر الصادق (ع) ، ولم تقبل بإمامة أخيه الكاظم (ع) ، ينظر : المواعظ والاعتبار : ١٨٢/٢ ، كما عرفت بالباطنية ايضاً ؛ إذا انهم كانوا يقولون بالامام الباطن او المستور ، ينظر : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي : ١٩٢/٣-١٩٣ ، وقد استطاعت هذه الفرقة من تؤسس دولة في افريقيا ثم في مصر وتدخل سوريا ، واهم مبادئها الامامة ، ومبدأ الحلول ، ينظر : في ادب مصر الفاطمية : ١٤-١٦ ، ويمكن اقرار هذه الطائفة اليوم في مصر والهند ويعرفون باسم البصرة . ينظر : أدب التشيع في الشمال الافريقي : ٩٧.

٧-ملامح الشعر الاندلسي :٨٨.

٨-تاريخ الادب العربي ، عمر فروخ :٢٦٧/٤.

٩-ينظر : ديوان ابن هاني الاندلسي : ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٤٦ على سبيل المثال.

١٠-ينظر : م.ن : ٧٥ ، ١٣١ ، ١٤٠ على سبيل المثال.

١١-مثل عقيدته في الامامة . ينظر : ديوان ابن هاني الاندلسي : ٩٧ ، ١١٤ ، ١٣٢ على سبيل المثال .

١٢-ينظر : وفيات الاعيان : ٤/ ٤٢٤ ، معجم الادباء : ٩٢/١٩.

١٣-ينظر: وفيات الاعيان : ٤/ ٤٢٥.

١٤-ينظر : لسان العرب : مادة (ختم) ، القاموس المحيط : ١٠٢/٤.

١٥-فن الشعر :٢٦.

١٦-البيان والتبين :١١٦/١.

١٧-المنسب : ٣٠٢/١.

١٨-ينظر : حلية المحاضرة في صناعة الشعر: ٢١٥/١.

١٩-كتاب الصناعتين: ٤٤٣.

٢٠-العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده :٢٣٩/١.

٢١-الخواتم الشعرية النظرية والتطبيق قديما وحديثا : ٩١.

٢٢-ينظر : ديوان ابن هاني الاندلسي : ٥٤،١٠٥ ، ١١٠ ، ١٢٠ على سبيل المثال.

٢٣-النقد الادبي الحديث : ٣٧٣.

٢٤-ديوان ابن هانئ الاندلسي :٢٧.

٢٥-م.ن : ٤٠.

٢٦-في ادب مصر الفاطمية :٢٦.

٢٧- ديوان ابن هانئ الاندلسي:٣٣.

٢٨-م.ن : ٢٣٩.

٢٩-ينظر : خاتمة القصيدة الاندلسية في عصر الطوائف : ٢٥.

٣٠- ديوان ابن هانئ الاندلسي :٢١٣.

٣١- م.ن : ١٣٨-١٣٩.

٣٢-ينظر : المثل : ٣٢٤/٢.

٣٣-ينظر :البنية الايقاعية في شعر الجواهري :٢٢٨.

٣٤- ينظر : خاتمة القصيدة الاندلسية في عصر الطوائف :٣٧ ، والخواتم الشعرية بين النظرية والتطبيق قديما وحديثاً :٩٧.

٣٥- ديوان ابن هانئ الاندلسي:٩٥.

٣٦-م.ن : ٣٦٠.

٣٧- ديوان ابن هانئ الاندلسي:٧٤.

٣٨-م.ن ٣٠١.

٣٩-م.ن : ٦٨.

٤٠-خواتيم القصيدة في شعر المتنبي :٨٩.

٤١-ينظر : فنية شعر المدح النبوي في الاندلس ، بحث في مجلة جامعة كركوك ، عمر ابراهيم توفيق : ٢٧.

٤٢-ينظر : الخطيئة والتكفير من النبوية الى التشريعية ، قراءة نقدية لنموذج انساني معاصر : ٧٣.

٤٣-العمدة في محاسن الشعر ادابه ونقده :٢٤٠/١.

٤٤-ديوان ابن هانئ الاندلسي : ١٠٤.

٤٥-خواتيم القصيدة في شعر المتنبي دراسة في الانماط والمعمار الفني : ٤٣.

٤٦- ديوان ابن هانئ الاندلسي : ٣٢٨.

٤٧-وفيات الاعيان : ٤٢٥/٤.

٤٨- ديوان ابن هانئ الاندلسي : ٢٥١.

٤٩-الحياة الادبية في العصر العباسي :١٢٠.

٥٠-العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده :٢١/١.

٥١-البنية الايقاعية في شعر حميد سعيد : ٨٠.

٥٢- ديوان ابن هانئ الاندلسي : ٤٠.

٥٣-م.ن :٣٥٧.

٥٤-م.ن : ٣٠٦.

٥٥-البيان والتبين :١٣٨/١-١٣٩.

٥٦-عيار الشعر :٨.

٥٧- ديوان ابن هانئ الاندلسي :١٢٨.

٥٨-م.ن :١١٣.

٥٩- م.ن :٣٧٣.

٦٠- م.ن : ٢٩١.

٦١- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : ٢١٨/٢.

٦٢- ديوان ابن هانئ الاندلسي : ٣٠٦.

٦٣- الحيوان : ١٣٢/٣.

٦٤-ينظر : نقد الشعر : ١٩/٣.

٦٥- الصورة الشعرية : ٢١.

٦٦-ينظر : الصورة الفنية في النقد الشعري : ٨٥.

٦٧- ديوان ابن هانئ الاندلسي : ٢٥٥.

٦٨- م.ن : ٣٤٩.

٦٩- م.ن : ٣٠١.

٧٠- م.ن : ٣١٢.

٧١- مفتاح العلوم : ٦٦٠.

٧٢- ينظر : مقامات بديع الزمان ، دراسة اسلوبية : ١١٦.

Sources and References

-١Al-Ihata fi Akhbar Granada, Lisan al-Din Ibn al-Khatib, Dar al-Maarif, Cairo, 1953.

-٢The Rhythmic Structure in al-Jawahiri's Poetry, Muqdad Muhammad Shukr, 1st ed., Dar Dijlah, Amman, Jordan, 2008.

-٣The Rhythmic Structure in Hamid Saeed's Poetry, Dar al-Shu'un al-Thaqafiyah, Baghdad, 1st ed., 1989.

-٤Al-Bayan wa al-Tabyeen, Abu Amr Uthman al-Jahiz (255 AH), ed. Abdul Salam Haroun, 5th ed., Al-Khanji Library, Egypt, 1985.

-٥Hilyat al-Muhadhara fi Sana'at al-Shi'r al-Adabi, Ali Muhammad ibn al-Muzaffar al-Hatimi, ed. Muhammad al-Kana'i, Dar al-Rashid for Publishing, Baghdad, 1979.

-٦Literary Life in the Abbasid Era, Muhammad Abd al-Mun'im Khafaji, Dar al-Wafa' for Dunya Printing and Publishing, 1st ed., 2004.

-٧Animal, Abu Othman Amr bin Bahr Al-Jahiz, T: Abdul Salam Haroun, 1st ed., Egypt.

-٨Sin and Atonement from Structuralism to Anatomy, A Critical Reading of a Contemporary Human Model, Dr. Abdullah Al-Ghadami, Cultural Literary Club, Jeddah, 1st ed., 1985.

-٩The Ends of the Poem in Al-Mutanabbi's Poetry, A Study in Patterns and Artistic Architecture, Samia Hamdi Siddiq Al-Marsi Al-Bar, Master's Thesis, Mansoura University, Faculty of Arts, 2004.

-١٠Diwan Ibn Hani Al-Andalusi, Dar Sadir for Printing and Publishing, Beirut, 1996.

-١١Al-Umdah in the Beauties of Poetry, its Etiquette and Criticism, Abu Ali bin Rasheeq Al-Qayrawani (456 AH), T: Muhammad Muhyi Al-Din Abdul Hamid, 5th ed., Dar Al-Jeel, Beirut, 1981.

-١٢The Standard of Poetry, Ibn Tabataba Al-Alawi (328 AH), T: Dr. Taha Al-Hajri and Dr. Muhammad Zaghloul Salam, Cairo, Egypt, 1956.

-١٣The Art of the Poetry of Praise to the Prophet in Andalusia, Omar Ibrahim Tawfiq, a research published in the Journal of Kirkuk University, College of Education, Issue 1, Volume 5, 2010.

-١٤In the Literature of Fatimid Egypt, Muhammad Kamil Hussein, Cairo, 2015.

-١٥Al-Qamus Al-Muhit, Al-Fayruzabadi, Al-Muasira Press, Egypt (no date.(

-١٦The Book of the Two Crafts, Abu Hilal Al-Askari (d. 395 AH), T: Ali Muhammad Al-Bijawi and Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Al-Babi Al-Halabi Press, Egypt, 1971.

-١٧Lisan Al-Arab, Abu Al-Fadl Jamal Al-Din Muhammad Ibn Manzur (711 AH), introduced by the scholar Abdullah Al-Alami, Arab Studies, Beirut, 1930.

-١٨The proverb "The common proverb in the literature of the writer and poet", Abu al-Fath Diaa al-Din Nasrallah bin Muhammad al-Mawsili known as Ibn al-Athir, trans. Muhammad al-Din Abd al-Hamid, Modern Library, Beirut, 1995.

-١٩Al-Muhtasib, Ibn Jinni, trans. Ali al-Baghdadi and others, Cairo, 1586.

-٢٠Dictionary of writers Yaqut al-Hamawi, revised edition, Dar al-Maarif, (no date.(

-٢١Key to the sciences, al-Sakaki, trans. Abd al-Hamid Handawi, 1st ed., Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, 2000.

-٢٢Maqamat al-Hariri, a stylistic study, al-Sahawi, MA thesis, University of Jordan, Amman, Jordan.

-٢٣Sermons and consideration, by al-Maqrizi, 1st ed., Muhammad Ali Publications, Dar al-Kutub, Beirut, 1998.

-٢٤Modern literary criticism, Muhammad Ghanimi Hilal, Dar al-Nahda Misr for printing, Cairo, 1973.

25- Deaths of Notables and People of the Time, Ibn Khallikan, Dar Al Thaqafa, Beirut, 1968 AD.